كلها ما عدا القيد والاهتمام . والحالم يدرك ويتذكر ويستدل ولكنهُ لا يقيس ولا يطبق ولا يدقق في القياس والتطبيق لان هذا التدقيق يقتضي جهداً عنيفاً . فحسبان الباحث ضجة ابتتاج بسيط لا يقتضي عناء ولكن الحكم بأنهُ نباح كلب لا يكون إلاَّ بعد إعمال الفكر وإعمال الفكر هو الذي ينقص الحالم وبهِ يمتاز عن المستيقظ

وبهذا الفرق الجوهري نفهم مزايا الاحلام أي مميزاتها فيفهم مثلاً لماذا تكون غير منسجمة وقلما يلاحظ فيها امتداد الزمن او توالي الحوادث بحسب اهميتها

فعدم الانسجام سهل التعليل لان الحلم لا يقتضي الانطباق التام بين ما يشعر بهِ الحالم وما يتذكره بل كثيراً ما يطبق الحالم امراً على أمر مخالف له أو يطبق اموراً متخالفة يأتي بها من ذاكرتهِ على أمر واحد يشعر بهِ. مثال ذلك أن ترى عيناه نقطاً بيضاً في بقعة خضراء فتصورها مرجاً أخضر فيهِ أزهار بيض او طاولة البياردو وعليها كرات العاج أو نحو ذلك مما يجتمع فيهِ الاخضر والابيض ويكون محفوظاً في ذاكرتهِ . وتتسارع هذه الصورة من الذاكرة وكل منها يحاول ان يلصق بالتأثير الذي دخل ذهنهُ فقد تتوالى عليهِ الواحدة بعد الأخرى فيرى أولاً مرجاً ثم طاولة بلياردو وقد يظهران دفعة واحدة حتى لا يرى فاصلاً في الزمن بين الصورة الاولى والثانية فتكون الصورة مرجاً وطاولة بلياردو في آن واحد وعلى هذا النمط يحدث كثير من الاحلام الغريبة التي ينتقل فيها الشيء إلى غيره حالاً وإذ يرى العقل ذلك يحاول إيضاحهُ فيزيدهُ غموضاً

ولهذا السبب عينهِ يفتقي الزمان من كثير من الاحلام فيرى الحالم في ثوانٍ قليلة حوادث لو تذكرها في يقظتهِ لقضى في تذكرها يوماً كاملاً لانهُ وهو في اليقظة يعيش مع غيره من الناس فيرى ما يجري لهُ متناسباً بحسب اتصالهِ بهم كأن ساعتهُ لغيره بمثابة ترس ساعة لها اسنان كثيرة تتقدم بها حركة زبلكها إلى ساعات ودقائق بدلاً من تركه يتحلل في وقت واحد . وهذا الترس المسنن لا وجود لهُ في الحلم فلا محل فيهِ للتحكيم والتدقيق وما يقتضيانهِ من الجهد والعناء ولذلك لا يضطر الحالم ان يطبق ما في نفسهِ على ما هو خارج عنهُ

***

بقي ان نعلل كيف ان خمود العقل يجعل الحالم يقدم بعض صور الذاكرة على البعض الآخر مع أنها تنطبق كلها على الحالة التي يكون فيها على حدٍّ سوى

من الآراء الشائعة اننا نحلم في الليل بما كان يشغل افكارنا في النهار خاصة . وهذا يصدق احياناً ولكن ان كانت الافكار التي نفكر فيها في النهار تبقى معنا ونحن نيام فذلك دليل على اننا

لا تكون تأثير النوم الحقيقي المريح بل النوم الذي نستيقظ منهُ متعبين كأننا لم ننم

اما الاحلام التي نحلمها في النوم العادي المريح فتكون غالباً مقترنة بالافكار التي خطرت لنا خطوراً وبالمواضيع التي مرت بنا ولم نمعن النظر فيها . وإذا حلمنا بما حدث لنا في يومنا فالغالب ان يكون بالتطفيف منهُ لا بالمهم فاذا كنت في شارع منتظراً مركبة اركب فيها ولما دنت مني اجفلت عن غير قصد ولغير داع خوفاً من ان تصدمني مركبة اخرى فقد احلم تلك الليلة ان مركبة صدمتني ومرّ مجلها عليّ ولكني لا احلم بالمركبة اذا صدمتني فعلاً . واذا سهرت على مريض مشرف على الموت وخطر ببالي انهُ قد يشفى ولو كان الرجاء من شفائهِ مقطوعاً ثم نمت فقد أحلم انهُ شفي . والحلم بالشفاء اكثر وقوعاً من الحلم بالموت ولو كان المريض على حافة القبر ومن المحقق ان الامور التي يراها الانسان في حلمهِ هي في الغالب الامور التي مر في بالهِ وقت اليقظة مروراً لا التي ينم نظره فيها ويطق قلبهُ عليها . ولا غرابة في ذلك لان الذات التي تحلم هي الذات التي لا تهم ولا تعنى والصور التي تجسمها من الذاكرة هي الصور التي تدخل الذاكرة من غير تعب ولا عناء

***

أما إذا كان النوم عميقاً جداً فيحتمل أن تكون أحلامه غير ذلك ولكن هذه الاحلام تنسى عادة ولا يتذكرها المرء بعد ما يستيقظ وإذا تذكر شيئاً منها شعر كأنهُ آت من مكان سحيق وزمان بعيد دلالة على انهُ تذكر في حلمهِ اموراً مرت عليهِ في صباه ولما استيقظ حاول ان يسترد بهجة الصبا فقالت لهُ هيهات

قالى أحلام هذا النوم العميق يجب أن يتجه بحث علماء النفس لكي يكتشفوا كيف تتجلى محفوظات الذاكرة بعد أن يكون صاحبها قد نسيها ولكي يعلموا الامور التي تدخل في دائرة المباحث النفسية . ولا أجسر أن أبدي رأياً في هذا الموضوع ولكني لا أحجم عن الاعجاب بالغيرة والهمة اللتين يعمل بهما أعضاء جمعية المباحث النفسية فان كان التلبثي تؤثر في أحلامنا فمن المحتمل أن يكون أشد تأثيرها فينا ونحن نائمون هذا النوم ولكني أكرر ما قلتهُ سابقاً وهو أني لا أستطيع أن أبدي رأياً في هذا الموضوع . وها قد سرت معكم على قدر استطاعتي فأقف عند عتبة المجهولات وستكون أهم أعمال علماء النفس في هذا القرن البحث في أعمق أسرار الوجدان أو فيما نسميهِ بالوجدان الباطن ولا شبهة عندي أن الباحثون سيكتشفون فيهِ مكتشفات عجيبة لا تقل اهميتها عن اهمية ما اكتشف مدة القرون الماضية كلها في العلوم الطبيعية هذا ما ارجوهُ وأتمناهُ وأجعله مسك الختام